



رسول الأشواق والأذواق
قراءة في أحكام الغناء
والموسيقا في الإسلام

د. محمد حبش

أستاذ مشارك في جامعة أبو ظبي
مقيم في الإمارات العربية

habash2005@gmail.com

رسول الأشواق والأذواق قراءة في أحكام الغناء والموسيقا في الإسلام

د. محمد حبش

أستاذ مشارك في جامعة أبو ظبي
مقيم في الإمارات العربية

هل جاء الإسلام حرباً على الفن؟

وهل تستند هذه الفتاوى المترافدة في تحريم الفنون والموسيقا والغناء التي تبثها الفضائيات المتخصصة بدون انقطاع على أسنة الوعاظ المحترفين إلى أدلة متفق عليها بين الفقهاء... أما الدراسة التراثية فقد خفانيها واحد من أكبر المحققين في التراث الإسلامي وهو العلامة ابن حزم الظاهري الذي تصدى ببسالة من رياض الأندلس الحضارية لدعوى تحريم ما أحل الله، وتناول باستفاضة وتفصيل تلك الروايات التي يتخذها أعداء الفن وناقش أسانيدها ومتونها⁽¹⁾، وحين انتهى من تحرير دراسته نشرها في المحل في واحد وعشرين صفحة استقصى فيها بالتفصيل الممل كل رواية وردت في تحريم الموسيقى والغناء، وجزم بألة علم الاصطلاح التقليدية بطلان هذه الروايات، وأشار إلى ضعفها وتهافتها من جهة الإسناد وأحد أن معظمها من باب الموضوع المفترى الذي لا تقوم به حجة في حلال ولا حرام. وقبل أن يمضي لإعداد كتابه الجميل طوق الحماسة في أخبار الإلف والإيلاف كُتب عبارته الجامعة المانعة فيما يتصل بالفنون، وهي فتوى لا تحتاج اليوم لأدنى تعديل نظراً لارتباطها بالمقاصد، وتحميل الإنسان المسؤولية الكاملة عن اختياره الفني، وموقفه الذوقي الجمالي، وهذا نصها:

فَجَوَابُنَا - وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ :
” إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَلِكُلِّ أَمْرٍ مَا نَوَى فَمَنْ نَوَى بِاسْتِمَاعِ الْغِنَاءِ عَوْنًا عَلَى مَعْصِيَةِ
اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ فَاسِقٌ، وَكَذَلِكَ كُلِّ شَيْءٍ غَيْرِ الْغِنَاءِ، وَمَنْ نَوَى بِهِ تَرْوِيحَ نَفْسِهِ لِيَقْوَى

(1) انظر المحل بالآثار شرح المجلى بالآثار للامام ابن حزم ج 9 صفحة 60 ط المكتبة المبيرية
القاهرة

بِذَلِكَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيُنَشِّطُ نَفْسَهُ بِذَلِكَ عَلَى الْبِرِّ فَهُوَ مُطِيعٌ مُحْسِنٌ، وَفَعَلَهُ هَذَا مِنَ الْحَقِّ، وَمَنْ لَمْ يَنْوَ طَاعَةً وَلَا مَعْصِيَةً، فَهُوَ لَعُوٌّ مَعْفُودٌ عَنْهُ كَخُرُوجِ الْإِنْسَانِ إِلَى بُسْتَانِهِ مُتَنَزِّهًا، وَقُعُودِهِ عَلَى بَابِ دَارِهِ مُتَفَرِّجًا وَصِبَاغِهِ ثَوْبَهُ لِازْوَرْدِيًّا أَوْ أَخْضَرَ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَمَدَّ سَاقَهُ وَقَبَضَهَا وَسَائِرِ أَعْمَالِهِ - فَبَطَلَ كُلُّ مَا شَعَبُوا بِهِ بَطْلَانًا مُتَيَقِّنًا - وَلِلَّهِ تَعَالَى الْحَمْدُ؛ وَمَا نَعْلَمُ لَهُمْ شُبْهَةً غَيْرَ مَا ذَكَرْنَا. (2)

ويمكن مطالعة ما كتبه الامام المحقق ابن حزم الاندلسي في هذا المعنى في كتابه المحلى بالآثار شرح المجلى باختصار ولا نزيد عليه في أمر المناقشة الإسنادية شيئاً.

وبعيداً عن جدل الرواية فإنني أحب أن أقرب أكثر من القيم الإسلامية التي حققت رعاية الجمال والفن، وأحيت علاقة الإنسان بالحياة على أساس وجداني وروحي عميق، يشد الإنسان من مشاعره العميقة ليمنحه عبودية الفن والشوق والتوق، والوجد والكلف، ويمنحه فرصة النظر من عل للعالم الأسمى الطافح بالمشاعر وخفق القلوب.

استمع النبي الكريم لغناء الجواري، والحديث في البخاري ومسلم، تكرر ست مرات، في أبواب العيدين والنكاح، ومن المدهش أن موقف النبي صلى الله عليه كان يثير استهجان الصحابة الذين افترضوا فيه الصلابة والترفع عن الفنون والمعازف، واشتغاله بالقيم العليا وفق منطلق قوله: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله. (3)

وهنا يقدم النبي نفسه ذلك الرسول الإنسان الذي يشرق من ساحة العناء بأفاق الرجاء، ويعلم الإنسان كيف يكافح وهو يبتسم.

في أشهر الروايات في البخاري أن الرسول الكريم كان متكئاً في بيته وعنده جوار يغنين، بغناء يوم بعث، وهي أغان كانت تذكرهم بالحنين إلى الأيام الخوالي، وحين دخل أبو بكر دهش لمراى الجواري في بيت النبوة وهن يغنين ويدفنن بالمزهر والخلخال وهذه كانت أدوات الموسيقى السائدة آنذاك، فقال مغضباً: أمزمارة الشيطان في بيت رسول

(2) المصدر نفسه

(3) رواه البخاري في الصحيح، انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج 11 ص 319 والترمذي في سننه، انظر نحوه الأحمدي بشرح الترمذي ج 6 ص 603

الله!!! ولكن النبي الكريم التفت إليه في نظرة حانية وقال دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد. (4)...

وأخذت الجواري الصبايا حماسة كبيرة حين رأين انتصار النبي الكريم لهن، وأضافت إحداهن ثناء خاصاً للنبي الكريم، وقالت: وفينا نبي يعلم ما في غد.....

هنا فقط قطع رسول الله عليهن غناءهن ورفع يده وقال: لا يعلم الغيب إلا الله.... دعي هذا وقولي ما كنت تقولين.... (5)

كانت ساعة وصال وصفاء، قدم فيها أهل المدينة أروع فنونهم أمام النبي الكريم ونالوا ثناءه ومحبهته، ووقفوا عند حدود ما أمرهم به من عدم مدح الإنسان بما ليس فيه.

في رواية أخرى أشد طرافة يشير بريدة بن الحصيب إلى موقف شاهده بنفسه حين جاءت جارية سوداء خرجت فيمن خرج لاستقبال النبي من بعض مغازيه فقالت إنني نذرت لئن عدت سالماً لأضربن لك بالدف، قم قامت بين يديه فجعلت تضرب فدخل أبو بكر وهي تضرب ثم دخل علي وهي تضرب ثم دخل عثمان وهي تضرب ثم دخل عمر فألقت الدف تحت أستها ثم قعدت عليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الشيطان ليخاف منك يا عمر إنني كنت جالسا وهي تضرب فدخل أبو بكر وهي تضرب ثم دخل علي وهي تضرب ثم دخل عثمان وهي تضرب فلما دخلت أنت يا عمر ألقت الدف (6)

وليس في الحديث ما يتوهمه الناس من تفضيل عمر على النبي الكريم، فقد كان الرسول في معرض التعليم والإرشاد وكان عمر في مقام الاختيار الشخصي، وكان رسول الله يعجب بشدة عمر لأنها ضرورة لهيبة الدولة ولكنه في الوقت نفسه كان حريصاً على نشر ثقافة الفرح والفن والجمال في حياة الأمة.

وقد اشتهر عمر بشدته، وكان إذا قال أسمع وإذا أطعم أشبع وإذا مشى أسرع وإذا التفت أفزع وسبحان من أقام العباد فيما أراد وهو المراد فيما يريد.

(4) رواه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي (ص)، باب مقدم النبي وأصحابه المدينة 2 / 225

(5) رواه البخاري في كتاب المغازي - باب شهود الملائكة بديراً، كما ورد في البخاري برقم 3140 باب إعلان النطاح والخطبة والشرط

(6) رواه الترمذي في سننه ج5 ص 292

نحن نعلم الحياة بالعلم، ولكننا نزينها بالفن، وركن الحياة العقل ولكن مدادها القلب، والنجاح في بناء الحياة على أساس من العقل والعمل ينتظر أن يزينه الفن البريء فتدفع إليه النفس بفطرتها باحثة عن الجمال، وتكون الحياة أبهى وأجمل عندما تنسكب فيها عواطف الأذواق وملامح الإشراق.

في مقام آخر أقر رسول الله الفنون حين كان يدعو أنجشة الحادي ان يغني في طريق السفر، كانت ألحانه الحزينة تهمر على مسامع المسافرين، وكان رسول الله تدمع عيناه عندما يذكر أنجشة مراع مكة ووديانها وشعابها، تلك المراع التي منعته قريش ان يراها لسنين طويلة، وكانت هذه الأغاني الباكية تستنفر المدامع من أهل القافلة ومن بغيرها أيضاً حتى قالوا كانت الإبل تعنق لحدائه، والمعنى أنها تشد أعناقها لاستماع هذا الحداء⁽⁷⁾

ولكن ما اندفع في خده من مدامع الرجال وهو الزعيم الصلب تفجر في نساء الصحابة بكاء ونحيباً، ولا تملك النساء ما يملكه الرجال من صبر، وكان رسول الله إذا رأى تحدر المدامع على وجوه الصحابيات يقول لأنجشة ارفق ارفق.... يا أنجشة رفقاً بالقوارير.....

وفي رواية النسائي كان يقول له: رويدك يا أنجشة.. لا تكسر القوارير من ضعفه النساء..!!⁽⁸⁾ إنها عبارة لا تشبه في شيء خطاب القسوة والشدة الذي يرفض بقسوة حضور المرأة في الحياة العامة، ومشاركتها في والعمل ناهيك عن التفكير بمشاركتها في الفن والغناء سماعاً أو انفعالاً أو غناء.

كان الصحابة يعلمون أن الخطاب الدافئ الطافح بالعاطفة الذي يقدمه رسول الله يختلف عن أعرف العرب القاسية، ولن يتقبله العربي الذي يرى في المرأة مجرد متعة خاصة لا يليق الحديث عن عواطفها الدافئة مع الغرباء، وفي ذلك قال أبو قلابة: تكلم رسول الله صلى الله عليه و سلم بكلمة لو تكلم بها بعضكم لعبتموها عليه يعني قوله رويدك يا أنجشة سوقك بالقوارير⁽⁹⁾

(7) صحيح مسلم ج 4 ص 1811

(8) سنن النسائي كتاب النكاح، ج 4 ص 219

(9) مسند أحمد ج 2 ص 186

كان الأعرابي يعبر عن المرأة بمصطلحات كناية غليظة قاسية، فهي نعجتني حيناً ومتاعي حيناً وامرأتي في أحسن الأحوال، وكان ربما كنى وشرق وغرب فقال أخبرتني التي عندي، أو التي في داري أو التي أنا بعلمها.. يريد أن يصرف الأذهان عن أي شائبة تذكر الناس بلطفها أو رقتها، أما الحديث عن قارورتي الرقيقة وشقائق النعمان وحببية رسول الله فقد كان يبدو في غير وارد الأعرابي الجافي ولكنه كان جزءاً أصيلاً من خطاب النبوة.

تحتاج إلى شجاعة فريدة حين تتحدث من أفق النبوة، فالرسول الذي يفترضه محبوه أزهد الناس في متع الدنيا وطيبها ورغدها يفاجئ العالم بقوله حبيب إلي من دنياكم الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة، أن يكون حبه للمرأة عنواناً يرفعه وغاية يتوسمها فهذا أكثر من محض بيان شمائل، إنه منهج حياة، موقف نبي كريم يريد الخير والسعادة للناس.

ولكن الجانب الأكثر دلالة في حياته الكريمة هو مهرجاناته التي كانت طافحة بالفرح والعاطفة وكانت مناسبة للقلوب السعيدة لصناعة البسمة وأنس القلوب.

ذات ليلة تعود عائشة من حفل زفاف للفارعة بنت أسعد بن زرارة، على ثبيط بن جابر الأنصاري وحين يتلقاها النبي الكريم يلتفت إليها بوجه باسم، ويخاطبها بوصفه معلماً للفرح والحياة ويقول: هل أهديتم لها شيئاً؟ قالت عائشة لقد سلمنا ودعونا الله بالبركة ثم انصرفنا.

وهنا يتدخل النبي الكريم معاتباً، فهذه اليتيمة بنت رجل من أهم رجال المدينة، وهو أسعد بن زرارة، وهو من احتضن مصعب بن عمير في داره قبل الهجرة، وفي داره أقيمت أول صلاة جمعة، وربما لم تكن تفاصيل السيرة كلها على النحو الذي تعرفه لولا هذا الرجل، ويتدخل النبي الكريم، مطالباً بجوقة فرح فنية مناسبة وفاء للرجل الكبير في فرح ابنته، ومن المدهش أن النبي الكريم اقترح الجوقة والكلمات المناسبة لفرح كهذا وقال: يا عائشة إن الأنصار قوم فيهم غزل، فهل أرسلت من يَغني؟⁽¹⁰⁾ قَالَتْ: لَا. قَالَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم-: «فهل بعثتم معها جارية تضرب بالدف وتغني؟»

(10) سنن البيهقي كتاب النكاح ج 7 ص 36 ورقم الحديث 13602

وتدهش السيدة عائشة من الروح الفنية للرسول الكريم، وعهدا بأبيها أبي بكر لا يرضى بالمعازف والمزامير، قالت: يا رسول الله!! ماذا نقول: وعلى الفور كان الرسول الكريم قد استحسّن أغنية عذبة يستحضر كلماتها تليق بفرح اليتيمة سليمة المجد، وراح يعلم عائشة وصويحباتها فقال قولي: **أَتَيْنَاكُمْ أَتَيْنَاكُمْ فَحَيَّانَا وَحَيَّاكُمْ** ، ولولا الذهب الأحمر ما حلت بواديكم، ولولا الحنطة السمراء لم تسمن عذارىكم⁽¹¹⁾...

كان يريد لهذه الفارعة أن تنتقل إلى دار عز، وأن يعلم أحماؤها أنها من رسول الله بمكان، فهي الذهب الأحمر يثرى به واديهم، وهي العذراء الممتلئة بالجمال والأنوثة.

من المؤكد أن هذا الوصف لسلوك النبي الكريم لن يرضي أولئك الذين يرونه فظاً غليظ القلب، لا يروى عنه الا خبر النار وسعيها وجهنم وسقرها وغضب الجبار ومقته، ولا يرون فيه باب رحمة للعالمين وغفران للشاردين.

ولكن أجمل مهرجاناته الخالدة هو تلك الأغنية العذبة التي غنتها صبايا المدينة العذاري يوم وصل الرسول إلى مكة، وهي الأغنية التي يمكن القول إنها أشهر أغاني التاريخ على الإطلاق فهي نشيد المسلمين في كل أرض، ينشدونها في بلاد العرب والعجم والهند والملايو وأوروبا وأمريكا بلسان عربي مبين، لا يترجم إلى لغات الأرض، بل يحافظ على ذلك المعنى الأول الذي وردت فيه الكلمات العذبة:

طلع البدر علينا	من ثنبيات الوداع
وجب الشكر علينا	ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا	جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة	مرحبا يا خير داع
قد لبسنا ثوب عز	بعد تمزيق الرقاع ⁽¹²⁾

(11) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ج9 ص 411

(12) وردت الأبيات في قصة الهجرة وفي قصة عودته من تبوك، وقد أوردتها معظم كتب السيرة ومنها سيرة ابن كثير وابن حبان وزارج المعاد لابن القيم والسيرة الحلبية والسيرة الشامية

من المدهش انه لا يعرف صاحب هذه الكلمات، مع أنها رويت كما في المكتبة الشاملة في 55 مصدراً من كتب الرواية، ويمكن القول إنه أشهر كلام في العالم لا يعرف له قائل، ولكن من المؤكد أنها قدمت لصبايا المدينة يفنينها عند إطلالة وجه الرسول الكريم، فيكون هذا المهرجان الفني الرائع بفقراته المتعددة إيذاناً بانطلاق أول يوم من أيام الإسلام، وإعلاناً بان هذه الشريعة تلامس دوماً أرق المشاعر والأشواق.

وفي فقرة أخرى من هذا المهرجان الفني الرائع قامت نساء بني النجار يعزفن أغنية خاصة بهن، وفيها“

نحن جوار بني النجار يا حبذا محمد من دار⁽¹³⁾

وحين رأى النبي الكريم نساء بني النجار حانت منه اليهن التفاتة كريمة ثم أقبل عليهن بوجهه وقال: أتحنيني؟ قلن أي والله يا رسول الله، فسر وجهه واستنار كأنه قطعة قمر، قم قال لهن: وأنا والله أحبكن... قالها ثلاثا....

وفي مقام آخر يصف أنس بن مالك مهرجان الفرح بقوله: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أضاء منها كل شيء وصعدت ذوات الخدور على الأجاجير: أي الأسطحة عند قدمه يعلن بقولهن: طلع البدر علينا من ثنيات الوداع...⁽¹⁴⁾

كان إذن مهرجان لقاء فريد تشارك فيه المرأة بانوثتها وصوتها العذب ويشارك الرجل بيريقي سيفه في أول أيام الإسلام، لترسم تلازم العمل والفن، والقوة والجمال، والعقل والعاكفة في دولة الرسول.

ولكن بعض أصدقائنا من فقهاء الشريعة ينكرون هذا كله، ويقولون إنه جرى قبل نزول الاحكام وتحريم الغناء، ولكنهم لا يشيرون إلى الروايات المتضاربة التي أشارت أيضاً الى ان هذه الأغنية بالذات كانت تغنيها النساء عند عودته صلى الله عليه وسلم من تبوك، في السنة العاشرة عند ثنيات الوداع،⁽¹⁵⁾ وأعتقد أن ثنيات الوداع اسم لكل هضبة أو جبل

(13) اورده ابن كثير في السيرة النبوية ج 2 ص 244 وقال لم يخرجها أصحاب السنن وإنما خرجها الحاكم النيسابوري على شرط الشيخين

(14) نقله السمهودي من دون أن يسنده في خلاصة الوفا بأخبار المصطفى ج 1 ص 92

(15) دلائل النبوة للبيهقي ج 5 ص 71 وقد اورده ابن حجر في الفتح ج 8 ص 191

بظاهر المدينة تخفي من يتجاوزها عن أعين مودعيه، وبذلك فإن لكل مدينة ثانيا وداع من شعبها الأربع، ولا زلت أذكر طريق الثيا على مدخل دمشق الشمالي من جهة عدرا حيث يختفي عندها المسافر عن عيون مودعيه أو مستقبله... رد الله علينا تلك المربع الجميلة.... وأذكر أيام الحمى ثم أنثي على كبدي من خشية أن تصدعا،،

سيكون لهذه السياقات بكل تأكيد ردود قاسية، فبعض أصحابنا لا يريد أبداً أن يرى الرسول الإنسان، ويريد أن يراه كما اعتاد قراءته في صورة النبي المفارق، يترفع عن رغائب الدنيا يصوم فلا يفطر ويقوم فلا ينام، وتسبح بيمينه الحصى ويظلمه الغمام، وتأتيه الأشجار ساجدة تمشي إليه على ساق بلا قدم!!

إنها محاولات لعقلنة التراث الإسلامي واقتباس ما هو واقعي وإنساني من ركام مروياته، وأشكر الله أن يسر لهذا السبيل فقيها هائلاً لا ترقى إليه الطير ولا يتهم في دينه في شيء وهو العلامة ابن حزم الذي ناقش الأسانيد بإتقان وبصيرة وأتاح لنا أن نقول إن الغناء والموسيقا من محاسن الإسلام وأن الإسلام رسالة فن وجمال، وأن من لم تهزه الأوتار وتطربه الأشعار فهو فاسد الطبع، بارد الأشواق والأذواق.

ومع أن التيار السلفي ظل يتأول ذلك كله، ويعتبره من المنسوخ الذي جاءت بإبطاله الأحكام، أو أن الجواربي اللاتي يغنين كن صبيات صغيرات، وهذا خلاف ما سقناه من روايات كثيرة، ولكن عدداً كبيراً من العلماء تصدى للدفاع عن روح الفن الإسلامي في الغناء والموسيقى وأشهر هؤلاء الإمام أبو حامد الغزالي الذي خصص فصلاً خاصاً في كتاب إحياء علوم الدين حول السماع.⁽¹⁶⁾

وقد عنون الإمام أبو حامد الغزالي في كتاب السماع المذكور بعنوان خاص: بيان الدليل على إباحة السماع، وفيها نص قوله: وما من شيء توصل أهل الصناعات بصناعتهم إلى تصويره إلا وله مثال في الخلق التي استأثر الله تعالى باختراعها فمنه تعلم الصناعات وبه قصدوا الإقتداء وشرح ذلك يطول.

فسماع هذه الأصوات يستحيل أن يحرم لكونها طيبة أو موزونة فلا ذهاب إلى تحريم

(16) كتاب إحياء علوم الدين لمحمد بن محمد الغزالي أبي حامد ج 2 ص 368 والكتاب بعنوان آداب السماع والوجد

صوت العندليب وسائر الطيور ولا فرق بين حنجرة وحنجرة ولا بين جماد وحيوان⁽¹⁷⁾

أما ابن المعتز العباسي الذي كان جديراً بالخلافة ولكنها زويت عنه فانصرف للشعر والرواية، وصنف كتب الجمال في الإسلام ومنها كتاب الزهر والرياض وكتاب البديع وكتاب الجامع في الغناء.

ولا يمكن أن نغفل أيضاً جهد عدد من أهم أعلام الإسلام الكبار الذين كتبوا في أمر السماع والغناء قريباً من رأي ابن حزم ومنهم ابن قيم الجوزية وابن قتيبة الدينوري والقاضي أبو الطيب الباقلاني والعلامة عماد الدين بن كثير وأبو منصور البغدادي وعبد الملك بن حبيب المالكي والعلامة ابن خلدون في مقدمته والحافظ بن طاهر وكمال الدين الافودي، وقد أورد حاجي خليفة في كشف الظنون تعريفاً بأعمال هؤلاء العلماء الأجلاء التي كتبوها في مسائل الغناء والمعازف وكلهم تقريباً يذهب إلى رأي ابن حزم أو قريب منه.

وللطروطوشي كتاب كشف القناع عن مسألة السماع، كما كتب محمد بن اسماعيل عمر شهاب الدين كتاب سفينة الملك و نفيسة الفلك في فن العزف أي الموسيقى فيه مباحث عن اصول الغناء والحانه وانغامه وتقاطيعه.

ولابن زياد عبد الرحمن اليميني كتاب خاص أسماء مزيل الغناء في حكم الغناء.⁽¹⁸⁾

أما السادة الصوفية فقد استقر الأمر عندهم على فتوى الشيخ أبي حامد وابن حزم في جواز استماع الأغاني والمعازف، ومستندهم ببساطة إذن النبي صلى الله عليه وسلم ورخصته في السماع والفرح.

ولكن الإمام الذي تصدى لهذه الحقيقة وأوسع البحث فيها استدلالاً وتطويراً وتأصيلاً هو الإمام عبد الغني النابلسي في كتابه الشهير إيضاح الدلالات في سماع الآلات، وقد توفي الإمام عبد الغني النابلسي عام 1143 في دمشق وعرفت له الشام فضله ولا زال ضريحه الكريم عامراً بالطيب والنور على سفح قاسيون في الشام المحمية برعاية

(17) المصدر نفسه

(18) يمكن مراجعة هذه الكتب كلها في كتاب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة وهو مرتب على الأبجدية وفيه تعريف بهذه الكتب جميعاً.

الرحمن، وقد قامت أخيراً على ضريحه الطاهر مدرسة عظيمة تتسع لآلاف الطلبة.

ومن الطريف أن أول كتاب طبع في مطابع دمشق هو كتاب الشيخ عبد الغني النابلسي وكان ذلك عام 1302 على الرغم من أنه كان محل جدل بين الظاهرية والفقهاء، ولكن حاجة المجتمع السوري إلى فتوى تعكس روح الإسلام في الفنون الجميلة هي التي دعت الدمشقيين إلى طباعة هذا الكتاب المتين المعزز بالأدلة والبراهين حول الفن الجميل في الإسلام.

وقد قام تلميذ الشيخ عبد الوهاب الدكدكي المتوفى عام 1189 بكتابة شرح ضاف لما قام به الشيخ النابلسي وأسماء رفع المشكلات عن حكم إباحتها سمع الآلات.

ولعل من الحكمة أن نشير إلى عدد من النساء الفاضلات اللاتي عرفن بالغناء أو بتنظيم الحفلات الفنية في التاريخ الذهبي للإسلام، ومن أشهرهن سكينه بنت الحسين وهي حفيده الإمام علي وقد نزلت الشام مع من حمل من السبايا إلى دمشق واتخذت داراً في أطراف دمشق بداريا وكانت دارها مقصداً للأدباء والشعراء وأهل الفن، وكذلك عائشة بنت طلحة وهي أيضاً بنت الصحابي الكريم طلحة بن عبيد الله واشتهرت بفصاحتها وشجاعته وريادته للفنون والآداب وأخبارها كثيرة في جمالها وقوة شخصيتها ورعايتها للشعراء والأدباء، وعريب بنت جعفر بن يحيى البرمكي وعلياء بنت المهدي أخت هارون الرشيد ورابعة العدوية العابدة المشهورة بالبصرة ودنانير جارية محمد بن كناسة الكوفي، وقد نقل عنها ابن الجوزي بعض غنائها مع أنه استبعد في موضع آخر أن يكون العلامة الزاهد ابن كناسة قد اتخذ مغنية.

إن لكل واحدة من هذه النسوة في تاريخ الإسلام إسهامات ونجاحات كبيرة، وكن صدراً للناس في عطاءهن وشرفهن، ولكن رسالتهن في الحياة كانت بالفعل تتصل بجعل العالم أكثر جمالاً وإشراقاً وسعادة.

ولا أشك أبداً أن هؤلاء النسوة الرائعات نجحن في العصر الذهبي للإسلام في النهوض برسالة الفن، ولكنني أشك أن يستطعن فعل الشيء نفسه في زماننا، خاصة لو كتب لهن القدر ان يعشن في ظروف الإسلام الراديكالي الذي يقدم اليوم فهمه للنساء على أنها الفتنة الملعونة وإذا خرجت استشرفها الشيطان وأنها مأمورة بالنقاب ولزوم

الحصير، وأن وجهها عورة وصوتها عورة ومشيتها عورة واسمها عورة.

أولئك الذين لا يرون في المرأة إلا سعاراً لاهياً ومتعة عاجلة لن يدركوا أبداً ما أودعه الله في قلوب النساء من رسالة الجمال والنور، وربما لن يصدقوا أبداً أن هذه السيدات الشريفات الطاهرات كن خزائن علم وحكمة وإيمان ونور، وكن جزءاً لا يتجزأ من مجد العصر الذهبي للإسلام.